



إعلان «الدولة الإسلامية في العراق والشام» (داعش) قيام «الخلافة الإسلامية» في العراق تطور، في اعتقادى، لا يمكن أن يمر مرور الكرام، لا على صعيد وجود أو انعدام مقومات حقيقة مكانية وزمانية لتأسيسها، بل يجب التوقف عنده في ظل الظروف العامة المحيطة بها.

بادئ ذي بدء لا تبدو واضحة حتى لمتابعي الشأنين الإقليمي والجهادي مؤشرات لحجم «داعش» الفعلى، الذي يتبع لها إعلان ما أعلنته.

فحتى عندما شنت هجومها الحالى في غرب العراق وشماله، وادعت لنفسها معظم العمليات العسكرية، ارتفعت أصوات من العشائر والجماعات السنوية الأخرى، محذرة من أن ثمة من يريد صبغ الانتفاضة الشعبية الحاصلة في المناطق ذات الغالبية السنوية على حكم نوري المالكي - المدعوم إيرانيا - بصبغة «داعش» لتسهيل التأجيج ضدها تمهدًا لضربها.

ثم أن ثمة صراعا دمويا بين «داعش» وعدد من التنظيمات المشابهة لها فكريًا وعقائديًا يستعر في المنطقة، منها جبهة «النصرة» التي تتبع تنظيم «الفاغuada»، ناهيك من التعارض الكبير في الممارسات بينها وبين الجماعات الإسلامية الأقل تشديدا، التي ت نحو منحى آخر في السعي إلى السلطة.

أضف إلى ما تقدم أن هناك معطيات جيوسياسية استثنائية تلقي بظلالهااليوم على عموم الشرق الأوسط. ولئن كانت أطماع طهران في منطقة الخليج قديمة، فإن الطريقة التي تتعامل بها الآن مع كيانات «الهلال الخصيب» غير مسبوقة. ذلك أن طهران، عمليا، تحكم بالواسطة كلا من العراق وسوريا ولبنان. وتأتمر بإمرتها تنظيمات مقاتلة أسقطت واقعيا حدود «سايكس - بيكون» قبل أن تسقطها «داعش» وتعلن على الأثر «الخلافة».

ونرى لها كذلك في شبه الجزيرة أصابع نشطة وتحالفات تكتيكية واستراتيجية في منطقة الخليج واليمن، بل إن لها صلات حتى في شمال أفريقيا العربي.

هنا لا بد من التوقف طويلا عند سرعة تجاوب واشنطن مع طلب نوري المالكي مساندته، بعكس موقفها «الخجول» - الذي يصفه كثيرون بالمتواطئ - إزاء معاناة السوريين مع نظام الأسد على امتداد أكثر من ثلاثة سنوات قضى فيها مئات الآلاف

وشرد الملايين. وهو ما يشي بمنظور استراتيжи أميركي للمنطقة لا تطمسه العبارات المنمقة المضاللة.

أساسا علينا تذكر أن جوزيف بايدن، نائب الرئيس الأميركي الحالي والسيناتور السابق، كان قد اقترح تقسيم العراق عام 2006، أي قبل توليه منصبه الحالي. وكانت رؤية بايدن تأسيس ثلاثة «كيانات» للشيعة والسنّة والأكراد. وقبل ذلك، كان «المحافظون الجدد»، الذين هيمّنوا على السياسة الشرق أوسطية الأميركيّة في عهد الرئيس السابق جورج بوش الابن يتكلّمون عن «شرق أوسط جديد». ومع أن ملامح هذا «الشرق الأوسط الجديد» كانت غامضة بعض الشيء - على الأقل على العرب - فإن عملية غزو العراق وما عقبها من إسقاط نظامه واجتثاث جذور السلطة فيه، ومن ثم حل الجيش وقوات الأمن، والتغاضي عن النزعات الطائفية المذهبية والعرقية، والنوازع الانتقامية التأريخية، مهدت الطريق إلى «عراقي بديل» مختلف تماماً عن «عراقي ما قبل 2003».

العراق البديل هذا تكامل بصورة واضحة لأذهان مخططي السياسة الخارجية الأميركيّة، مع منظومة جديدة غدت معالّمها جليّة للعيان. وأدى فيها نظام بشار الأسد الدور الموكّل إليه، ألا وهو اصطدام الشراذم الأصولية السنّية، واستغلالها على المستويين المحلي والإقليمي.

بما يخص العراق، كلف نظام الأسد بتجنيد شراذم جهادية متشددّة وإرسالها إلى العراق - على غرار ما كان يفعله «أبو القعاع» محمود قول آغاّسي - لمحاربة قوات الاحتلال الأميركي تمهيداً لفرض سحبها. وهذا بالضبط ما كانت تريده طهران، بدلاً من الاصطدام مباشرةً بالقوات الأميركيّة وتحمل الكلفة الباهظة لإراقة دماء الأميركيّين. ونجحت خطة طهران، واقتصرت القيادة الأميركيّة بأنّ ثمن البقاء في الأراضي العراقيّة ما عاد مقبولاً..

فانسحبّت تاركة البلاد تحت سلطة سياسية تابعة للقيادة الإيرانية، والمناطق السنّية تحت رحمة الجهاديين المتشددين، إلى أن ضاقت بتجاوزاتهم وتعسّفهم العشائر ظهرت «الصحوات»، وأفلحت بإبعادهم لفترّة لا يأس بها عن معاقّلها.

في لبنان، كان مطلوباً إنهاء «الحالة السنّية» التي مثلّها رفيق الحريري، رئيس الوزراء السابق، وأبرز الساسة السنّة، غير أن الجهة المخططة والمنفذة أساءت تقدير ردّة الفعل. فقط ردّة الفعل. لكن هذا الخطأ العرضي أمكن تصحيحه بعد استيعاب صدمة ردّة الفعل الشعبيّة غير المحسوبة بدقة، ومن ثم استعاد محور طهران - دمشق زمام المبادرة.

وببدأ العمل على القضاء على القيادة السنّية «المعتدلة»، المقبولة عربياً ودولياً، عبر اصطدام قيادات متشددّة تزايد على تيار «المستقبل» الشعبيّي الخدماتي الذي يفتقر أساساً إلى «الغرizia» السياسيّة والأرضية الآيديولوجية الصلبة، وتسحب بشعاراتها الراديكاليّة الغاضبة «البساط السنّي» من تحته.

وكان أول الغيث تسهيل دخول تنظيم «فتح الإسلام» إلى مخيّم نهر البارد في شمال لبنان، حيث إحدى أكبر الحواضن السنّية في البلاد. وكما حدث مع «صحوات» الأنبار حصل في نهر البارد، فسقطت محاولة «فتح الإسلام» على أيدي شهداء الجيش اللبناني الذين كان معظمهم من سنّي المنطقة المحيطة بالمخيّم، أي عكار والمنية والضنية وطرابلس.

ذلك عملت القياداتان الإيرانية والسوّورية على تغيير «تحالف 14 آذار» الذي كونه الزخم الشعبي اللبناني المناوئ لهما من الداخل. فجرى احتضان ميشال عون، أحد غلاة الزعماء المسيحيين المتشددين، فـ«أعيد تأهيله»، ثم استخدامه لشق صفوف القوى الديمقراطيّة واللبيّرالية والتقدّمية في لبنان. ونفذ عون المهمة الموكّل بها بحذافيرها حتى الآن. وبالتنسيق والتفاهم مع حزب الله عطل انتخاب رئيس جديد للجمهوريّة، وبالأمس طرح «مبادرة» طائفيّة - تقسيمية تناقض الدستور وتجاهل كلّا مخاطر الفراغين السياسي والأمني.. بينما يعزّز حزب الله، وسط الفراغين، موقعه كدولة داخل الدولة.

أما في سوريا، فلا حاجة إلى التذكير بما فعله بشار الأسد من إعادة رسم جغرافيّتها السكانيّة بالدم والتهجير والتقسيم الطائفي والعرقي الفعلي. «سوريا اليوم» أيضاً غير «سوريا مطلع 2011».

وهكذا أمامنا غول تقسيم المنطقة، ومن ثم تقاسمها باسم احتواء «خلافة البغدادي»، التي لو لم تكن موجودة لوجب

اختلاقها.

الحياة

المصادر: